المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

ندوة: ١٤٣٢هـ
الدراسات البلاغية .. الواقع والمأمول

السجل العلمي

لنــــدوة

" الدراسات البلاغية : الواقع والمأمول "

٢١-٢٢/٦/١٤٣٢ هـ

الجزء الثاني

الوضوح والغموض
بين
الدرس البلاغي والنقدي

د. حبيب بن معلا اللويحق

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد:

فإن قضية الوضوح والغموض في الإبداع الفني تكاد تكون أم القضايا في الحراك النقدي العربي عبر تاريخه في سياقات متعددة مختلفة ، وهي وإن لم يظهر الاهتمام بها تنظيرا في بدايات التدوين النقدي إلا أنها كانت في ذروة مستويات التطبيق أو الحوار في شأنها عبر نص أو أكثر بين المدارس النقدية المختلفة (١) .

ومن أجل هذا كان لابد من النظر في الحراك النقدي والبلاغي حول هذه القضية ووضعها موضعها الصحيح بين الحكم الفني المحض والأحكام المضمونية ومعايير روز النصوص.

ويقوم هذا البحث على محاولة تأطير للنظر في قضية الوضوح والغموض بعيداً عن التناول الشكلي لها ، وقريباً من النظر إليها قضيةً فكرية تحمل أبعاداً بينها وبين الشكلانية المجردة مثل مابين المشرق والمغرب، كما يقوم على العلاقة بين هذا النمط من التناولات النقدية ورسالية النص، وهي محاولة لجرّ النقاش المحتدم في هذا الشأن الساخن من

---

(١) انظر في هذا : الناصر درويش، ظاهرة الغموض في الإبداع،المكتبة العلمية،بيروت، د ت، ١٨ وما بعدها.

وهدات السذاجة الجمالية إلى معترك الفكر ونزاع التيارات ؛ لأن التناول الغالب لهذه القضية إنما يميل بها إلى غير هذه السياقات ، بل ينحو بها إلى سياقات تتحدث عن مخالفات لاشتراطات جمالية أو نقدية، وهذا ما يحاول البحث رصده وتفنيده .

ولقد اكتفيت في هذا البحث بتقرير جملة من الحقائق المبنية على نظر وتأمل في شأن الوضوح والغموض مصطحباً رسالة النص، وكونه وسيلة الصلة بين المبدع والمتلقي، وكون انقطاع هذه الصلة وانبتاتها مظهر ضعف، وعلامة من علامات العي وقلة الحيلة الإبداعية مهما حاول النقاد المحدثون تزويقه وزعم أن المبدع عميق الغور لايبلغ أي أحد كنه ما يقول.

ولقد جعلت بين يدي هذه القضايا حديثاً مجملاً مبنياً على ملحوظات استقرائية عن النظر البلاغي والنقدي في هذه القضية ، مع علمي اليقيني أن البحث في مثل هذا يحتاج نفساً طويلاً وتفريعات كثيرة لايحتملها المقام ، وقد تذهب المعنى المراد من البحث وإعادة الحديث فيه جذعا ؛ ولكن هي بلغة وإشارة .

والله المستعان.

المبحث الأول

القضية والمصطلح في التراث

إن قضية الوضوح والغموض قضية قديمة قدم الإبداع ؛ لأن سؤالات التلقي في بدايتها لامناص من أن يكون على رأسها : ما الذي يريده النص والناص؟ ولذلك رأى كثيرون أن الوضوح مطلب بارز في كل مثاقفة إبداعية في تراثنا ، بل إن بعضهم يرى أن الوضوح هو الأصل في الأدب العربي منذ نشأته الأولى ؛ "ومن هنا ذهب منظرو الأدب إلى القول بأن الشعر الجاهلي انطباعي ذو تأثير واقعي يعتمد على الحسية ، ومن هنا تبلور المذهب النقدي الذي يرجح أن كفة الشعر الجاهلي تميل إلى الإضاءة والكشف والوضوح"(١).

بل إن الوضوح في المعاني والإبانة عن المقاصد وجلاء المكنونات من أبرز سمات الشعر الجاهلي الذي كان وسيلة التواصل الكبرى بين الناس ولسان القبائل الناطق ؛ فمعانيه" واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولابعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث الشاعر عن أحاسيسه أوحين يصور ماحوله من الطبيعة ؛ فهو لايعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة التي

---

(١) مسعد العطوي، الغموض في الشعر العربي ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،١٤١٠هـ ، العدد ٢ ، ١٨٨.

تخرج به عن الحدود المعتدلة ؛ ومرجع ذلك في رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء ، بل كان يحاول نقله إلى لوحاته نقلاً أميناً يبقي فيها على صورها الحقيقية دون أن يدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمس جوهرها "(١) .

وهذه البساطة التي تطبع الشعر الجاهلي بطابعها وتسمه بميسمها ليست تقريرية ولا مباشرة و"لا تناقض إجالة النظر وصقل الفكرة وشحذ الذهن ... وليس الفن كله معقداً مركباً ؛ بل منه البسيط الواضح الذي يلائم الفكرة والطبيعة الصحراوية ،ومنه :المركب المعقد المغرق في الخيال؛ الذي هو نتاج الحضارة والمدنية "(٢) .

ومن هنا تكونت حالة عامة تجعل الوضوح أمراً حتمياً في أي مثاقفة جمالية أو موضوعية ، وحين ننعم النظر في المصطلحات التي تحدثت عن جماليات الأسلوب في العربية ومدى استجابته للراهن المعرفي ؛ كالبلاغة والفصاحة نجد أن هذه اللغة الخالدة تعني بها : الوصول والتأثير في المتلقي والإبانة والإفصاح عما في النفس(٣).

---

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٨، د ت ، ٢١٩.

(٢) يحيى الجبوري ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٨ ، ١٤١٨هـ، ١٩٩.

(٣) انظر : وليد قصاب ، في الأدب الإسلامي، دار القلم ، دبي ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ١٠٧.

ويرى بعض الدارسين في التراث النقدي العربي أنه مع أن جذور القضية تمتد إلى العصر الجاهلي إلا أن هناك من يراها وليدة العصر العباسي ؛ نظرا لما طبعت عليه الحياة الفكرية والسياسية والثقافية والأدبية في العصر العباسي من الانفتاح والاختلاط بثقافات أمم أخرى أدت إلى ظهور موجة الغموض عند بعض الشعراء؛ أنتجت مثاقفات مختلفة ؛يمثلها قول أبي العميثل لأبي تمام: لم تقول مالا يفهم ؟ فيجيبه أبو تمام: لم لا تفهم ما يقال؟ وكأن أبا تمام هاهنا يلخص المشكلة الكبرى لجدلية العلاقة بين النص والناص والمتلقي؛ حيث جعل غموض المعاني وإبهامها محوجاً المتلقي إلى الاستنباط والشرح والتدقيق ؛ مما يصرف عنه عيب التعمية ويلقي بالتبعة على المتلقي الذي لا يحسن الغوص(١)، مع أن هناك من رد الغموض في شعر أبي تمام إلى البعد في الاستعارات والعمق في الأفكار وغرابتها ومحاولات التجديد المتكررة عند الشاعر(٢) .

وربما كان الحديث عن ظاهرة الغموض في العصر العباسي متصلاً بالغموض في المعاني ومرادات النصوص أكثر من كونه متصلاً بالغموض

---

(١) انظر : الآمدي ، الموازنة ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، د ت ، بيروت ، ١٠-١١.

(٢) انظر : السيد محمد الديب ، الغموض في شعر أبي تمام ،دار الطباعة المحمدية،القاهرة، ١٤١٠هـ،٣٧.

الذي تعرفه فضاءات النقد الحديث ، ولعل القول بأن ظاهرة الغموض وليدة العصر العباسي بالكلية أمر غير مجمع عليه بل يحتمل نقاشاً طويلاً؛ إذ لا يمكن أن تظهر هكذا دون إرهاصات من العصور السابقة بل إنها كغيرها من القضايا بدأت شيئاً فشيئاً حتى أخذت شكلها في العصر العباسي الذي هو بدوره إرهاص لمفهومات وتطبيقات لاحقة(١).

وقد ظهرت نظرة نقدية ذات روح جديدة في التناول لقضية الوضوح والغموض على يد عبد القاهر الجرجاني الذي رأى أن وضوح المعنى وظهوره لا يتعارض مع المعنى اللطيف الذي يحتاج إدراكه إلى تأمل وإعمال نظر؛ حيث لابد للصورة أن تتميز بشيء من الغموض من خلال تباعد أطرافها بحيث تشبه جوهرة نفيسة في صدفة محكمة الإغلاق لايحصل عليها طالبها إلا ببذل الجهد ؛ "فالمركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى وبالمزية أولى ؛ فكان موقعه في النفس أجل وألطف وكانت به أضن وأشغف"(٢) ؛ وهذا لا يتأتى لكل من

---

(١) انظر: الناصر درويش، ظاهرة الغموض في الإبداع ، ٤٦.

(٢) عبدالقاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ت محمود شاكر ، ط ١ ،مطبعة المدني ، ١٤١٢هـ ، القاهرة ، ١٣٢.

تلقى النص ما لم يكن متلقياً من نوع خاص ؛ ذا بصيرة ونظر في مواطن الجمال ومعرفة بكلام العرب⁽¹⁾.

وكلام عبد القاهر هذا وأشباهه في مواطن متعددة يوحي بنظر ثاقب وقدرة على التفريق بين الإغماض الفني والإبهام اللغوي من جهة ، وبين الوضوح التقريري المباشر والوضوح النسبي الذي يبين المقصود ويظهر غاية المبدع ورسالته التي يريد بها أن تبلغ المتلقي ؛ وهذا من بعض معطيات الحراك النقدي الحديث كما سيأتي.

إن هذا الجهد النقدي الذي بدأ بعبد القاهر الجرجاني جعل الغموض في النصوص الإبداعية يحمل دلالتين مختلفتين ؛ دلالة جمالية فنية متعمدة من المبدع يكو ن الغموض بموجبها فنا إبداعيا مرادا، ودلالة لغوية يكون الغموض فيه إبهاما وتعمية وركوبا للصعب النافر الوحشي من الكلام ؛ "وبهذا المفهوم المتقدم يشكل الغموض ظاهرة فنية مرتبطة بالمحيط الإنساني وبالفنان المبدع ؛ مما يجعل المتلقي لهذا العمل الفني بحاجة حسية وفكرية ماسة من أجل فك رموز العمل الفني وتفسير دلالاته وتحديد قراءاته لكي يقف المتلقي على طبيعة العمل الفني وجوهره، وهذه الحال

---

(١) انظر : السابق ١٤١.

تشكل قمة اللذة الحسية والذهنية عند المتلقي ،كما أنها تجسد غاية المبدع وهدفه، وهذا هو سر النص الإبداعي ومعنى وجوده "(١) ، بل إن هذا التقسيم يقدم رؤية لتقسيم آخر يقوم على نوعين من الغموض صادرين عما سبق؛ غموض يشف عما تحته من المعاني ويحتاج المتلقي إلى جهد وتأمل ليدرك كنهه ، وغموض مبهم لا يكاد المتلقي يجد سبيلا لفك معمياته ، وإن حاول فلن يجد طائلا من ورائها(٢).

لقد كان كل هذا الحوار في تراثنا العربي يجري في الشعر بعيدا عن النثر؛ "لأن خصوصية الشعر وغرابة لغته عن لغة الحياة اليومية التي يستخدمها الناس لقضاء حاجاتهم اليومية وطرافة صياغته للأفكار والمعاني بصورة غير مألوفة في الاستخدام العادي للغة لم يجعله منفصلا عن وجدان الناس وعقولهم ... ولكننا لا نعدم من النقاد من يرون المبالغة في غرابة لغة الشعر وطرافة صياغته بحيث يكون بعيدا عن الانكشاف والوضوح ومباشرة المعنى محتاجا إلى دقة التفكير"(٣).

---

(١) انظر : الناصر درويش ،ظاهرة الغموض في الإبداع ، ٨٣.

(٢) انظر : أحمد بدوي ، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر،١٩٩٦م، مصر ،٤٧٣.

(٣) محمد مصطفى هدارة ، ظاهرة الغموض في القصيدة العربية المعاصرة ،ضمن : دراسات في الأدب الحديث، النادي الأدبي بالمدينة النبوية، المجلد ٣، الكتاب ١٠٢، ط١ ، ١٤١٦هـ ، ٢٣٧.

إن هذا المطلب في الإبداع النثري والشعري كان مدار الاهتمام في تلقي النص رغم اختلاف التعليل ، ولكن يكاد يكون الإجماع منعقدا في تراثنا على ضرورة وجود الصلة بين النص والمتلقي حدا أدنى وبين الناص والمتلقي في مستوى أعلى ؛ ويجسد هذا الحجاج النقدي الذي أورده ابن سنان الخفاجي أحد مظاهر التعاطي مع هذه القضية في تراثنا ؛ حيث يقول واصفا مذهب أبي العلاء في الغموض ، واختلاف النقّاد في هذا الغموض وبلاغته : " جرى بين أصحابنا في بعض الأيام ذكر شيخنا أبي العلاء بن سليمان ، فوصفه واصف بالفصاحة ، واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء ، فعجبنا من دليله ، وإن كنا لم نخالفه في المذهب ، وقلت له : إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل أولا في المقصود بالفصاحة التي هي البيان والظهور ، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلّم ، لأن الفهم من إشارته بعيد عسير ، وأنت تقول : كلما كان أغمض وأخفى كان أبلغ وأفصح ، وعارضه أبو العلاء صاعد بن عيسى الكاتب ، وقال : صدقت ، إننا لا نفهم عنه كثيرا مما يقول إلاّ أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء لأنه يقول ما لا نفهمه نحن ولا

أبو العلاء أيضاً "(١) ، ثم يتبع هذه الحوارية الطريفة برأي في الوضوح ، ويعدّه – دون الغموض – من شروط الفصاحة ، ثم ذكر الرأي الذي يرى الغموض بلاغة في الشعر دون النثر ، ونقده ، وأورد رأياً لأبي تمام في الوضوح والغموض ونقد أشعارا لأبي الطيب ؛ مما يجعل تناوله هذا الذي يشرح لنا فيه الآراء المختلفة حول الغموض ومكانه من الدرس الإبداعي مثالا للتعاطي العميق لقضية الوضوح والغموض(٢).

ومن هذا القبيل تعريف أبي عثمان الجاحظ للبيان بأنه "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي"(٣)، ويضيف " لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير إلى مغزاك وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزعت "(٤).

وأما ابن رشيق فقد اشترط للشاعر المجيد أن " يلتمس من الكلام ما سهل ومن القصد ما عدل ومن المعنى ما كان واضحا جليا يعرف بديا"(٥)، ويستشهد بقول بعض المتقدمين : " شر الشعر ما سئل عن معناه"(٦) بل

---

(١) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ت عبدالمتعال الصعيدي،مكتبة صبيح ، القاهرة،١٣٨٩هـ، ١١٤ .

(٢) السابق ١١٥ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ت عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، ط ٤ ، ١٩٨٥م، ج١ ، ١٦٧ .

(٤) السابق ١٦٨ .

(٥) ابن رشيق ، العمدة ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٥ ، ج ١ ، ٨٩ .

(٦) السابق ، ٩٠ .

جاوزذلك بعد التعقيد الذي يراه نوعا من الغموض عيا ؛ فيقول : " وليرغب عن التعقيد في الابتداء فإنه أدل العي ودليل الفهة "(١).

غير أن بعض النقاد في تراثنا العربي تنبه إلى الغموض المحبب في الشعر دون النثر؛ إذ استحب في الثاني الوضوح واستحب في الأول الغموض ؛ يقول أبو إسحاق الصابي :

" وأفخر الشعر ماغمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة"(٢) .

وقد أيد أبا إسحاق فيما نحا إليه ابنُ أبي الحديد فقال:" وكلما كانت معاني الكلام أكثر ومدلولات ألفاظه أتم كان أحسن ؛ ولهذا قيل : خير الكلام ماقل ودل ، فإذن كان أصل الحسن معلولا لأصل الدلالة وحينئذ يتم إشباع الجملة؛ لأن المعاني إذا كثرت وكانت الألفاظ تفي بالتعبير عنها احتيج بالضرورة إلى أن يكون الشعر متضمنا ضروبا من الإشارة، وأنواعا من الإيماءات والتنبيهات "(٣) ، ويقول في موضع آخر : "ولسنا نعني بالغموض أن يكون كأشكال إقليدس والمجسطي والكلام في الجزء؛ بل أن

---

(١) السابق ، ٢١٩.

(٢) الناصر درويش ، ظاهرة الغموض في الإبداع ، ٥٤.

(٣) ابن أبي الحديد ، الفلك الدائر ، ت أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط ٢، ١٤٠٤هـ،٢٨١.

يكون بحيث إذا ورد على الأذهان بلغت منه معانيَ غير مبتذلة وحكما غير مطروقة، فلا يجوز أن يكو ن الشعر الذي يتضمن الحكم ليس بالأحسن ... ومعلوم أن الشعر الذي يتضمن الحكم هو المعنوي كشعر أبي تمام ومن أخذ أخذه "(١).

وظاهر أن ماذهب إليه أبو إسحاق الصابي وصرح به ابن أبي الحديد يحبذ الغموض الناشئ عن عمق الفكرة دون إغماض ناتج من تعقيد الأسلوب وغرابة اللفظة وسوء ترتيب التركيب فضلا عن الغموض المحدث المستغلق .

غير أن كل ناظر في هذا الشأن لابد أن يقف مع النزعة الرمزية في الأدب العربي عموما وفي العصر العباسي خصوصا ؛ حيث " عمد الشعراء العباسيون إلى التعمق في المعاني ومزجها بالروح الفلسفي وتوليدها من العلوم المختلفة ... فالغموض في الرمزية العربية كان يستعير من العقل ومن العلم كثيرا من الأسس والدعائم "(٢).

---

(١) السابق ،٢٨٢.

(٢) درويش الجندي ، الرمزية في الأدب العربي ، نهضة مصر، د ت ، ٢٦١.

وقد عقد عبد القاهر للرمز فصلا في دلائل الإعجاز ؛ وسماه "فصل في اللفظ يطلق والمراد غير ظاهره "(١)، وقال عنه :" إن لهذا الباب اتساعا وتفننا لا إلى غاية؛ إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين : الكناية والمجاز "(٢)، وهو لا يكتفي بهذا، بل يرى هذا العدول عن المباشرة أصلا إبداعيا مهما، ومقياسا لتفضيل النصوص بعضها على بعض ؛ فيقول : "وكذلك كانت الكناية عند العرب أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، والمجاز أبلغ من الحقيقة"(٣). وغني عن البيان أنه – هاهنا – لايعني الرمز الحديث بكل تقاطعاته الفكرية والفلسفية والمثالية بل يعني التفسير اللغوي للرمز .

ولعل المدرسة الصوفية التي اهتمت بالباطن ورياضة المعرفة الغيبية والمثال واللاشعور(٤) من أكثر المدارس الفكرية في تراثنا العربي تعاطيا مع الغموض وتطبيقا له ؛ ذلك " أنهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإخفاء والستر على من باينهم في

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،ت محمود شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ١٤١٢هـ، ٧٦.

(٢) السابق ٦٦.

(٣) السابق ، ٨١ .

(٤) انظر: خالد الباني ، الصوفية الغالية ، دار البشائر الخيرية ، ١٤٢٢هـ ، ١١.

طريقتهم ؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها "(١)، إلا أن انحرافات المدرسة الصوفية الباطنية حالت دون شيوع هذه الطريقة الرمزية التي توظف الغموض في تناولات النسق الحديث ضمن المشروع النقدي في تراثنا الحديث بكل أطيافه .

وبهذا كله يظهر أن قضية الوضوح والغموض ماثلة في تراثنا العربي؛ تطبيقا في نماذج عديدة ، وتنظيرا في محاولات أقل عددا ، وأن التناول النقدي لا يميل إلى الفكر وتقاطعاته إلا في بعض التجليات التي ظهرت في تناولات المدرسة الصوفية .

---

(١) أبو القاسم القشيري ،القشيرية ، ت عبدالحليم محمود ، دار صادر ،بيروت ،١٩٨٩م، ٦١.

المبحث الثاني

الوضوح والغموض في الدرس البلاغي

مر الدرس البلاغي العربي عبر تاريخه الطويل بتبدلات كثيرة في التناول والآليات والمسافة بين التنظير والتطبيق ، وإن كان قد استقر في جزء طويل من هذا التاريخ على درس تنظيري يميل للتفقير العلمي والتقسيم المنطقي على يد المدرسة السكاكية .(١)

لكن الذي يهم من هذه التناولات هو الموقف من الوضوح والغموض ؛ وهو مانجده ماثلا في كل تقاطعات النظر البلاغي عند الحديث عن الفصاحة والبلاغة ؛ فإن كثيرا من السجال في هذا السياق يتجه إلى الإبانة عما في النفس والتواصل مع المتلقي والتعبير عن المقاصد؛ يقول الجاحظ : " والإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية وليس العربي أسوأ فهما لطمطمة الرومي لبيان اللسان العربي فكل إنسان من هذا الوجه يقال له: فصيح ".(٢)

---

(١) للتفصيل في هذا؛ انظر : شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، ١٩٨١م ، ٢١٦.

(٢) الجاحظ ، الحيوان ، ت عبدالسلام هارون ، دار الكتب العلمية ،ج١ ، ٣٢.

ويقول ابن وهب : " فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى، والبليغ مابلغ المراد ، ومن ذلك اشتقا ؛ ففصيح الكلام ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له بعد ألا يكون كلاما ساقطا ولا للفظ العامة مشبها "(١) ؛ بل إن البلاغيين الأوائل جمعوا بين مقصود البلاغة ومقصود الفصاحة؛ حيث جعلوهما شيئا واحدا متمثلا في التواصل اللغوي والتواشج الدلالي مع المتلقي كاشفا في الوقت نفسه عن المعاني التي تربطه مع نصه ومع متلقي النص؛ يقول أبو هلال العسكري :

" فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ؛ لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له "(٢)، وهذا هو أصل الحديث عن تمام البلاغة وأساس قيامها؛ حين يكون : الوضوح والكشف عما في الضمائر دون إبهام أو إغماض، وهو –كما ترى– اختزال للمفهوم العريض لقضية الوضوح والغموض في النص الإبداعي .

غير أن منحى آخر يظهر في مثل هذه التناولات يجعل النقاش – هاهنا – أكثر ميلا واستجابة للشرط الجمالي والشرط الفكري عبر تواشج

---

(١) ابن وهب ، البرهان ، دار المنارة ، دار الرفاعي ، ط ٣، ١٤١٨، ٤٨.

(٢) أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين ، ت علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ،بيروت ، ١٤١٩هـ، ١١٣.

النظم ؛ يقول القاضي عبدالجبار:"اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة "(١)؛ إذ نجد في كلامه توجيها متميزا للفصاحة بأنها دلالية مركبة أكبر من تقديمها كل لفظة على حدة ، وقد نص على مثل هذا في بيان القيمة الدلالية الموصلة للمعنى في تأليف الكلام بعضه مع بعض ابن سنان الخفاجي ؛إذ يقول: " والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه مما يكره ، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة "(٢)

ويتوج هذا المنحى في تناولات الوضوح والغموض في بلاغتنا العربية نظر عبد القاهر الجرجاني في فصاحة الكلام وبلاغته ، ونكيره الشديد على من أسندهما إلى الكلمات مفردة دون نظم يقدم الدلالة والوضوح فيها معبرين عن مكنونات النفس ؛ حيث يقول عما سماه (علم الفصاحة): "فإنك إذا قرأت ماقاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزاً ووحياً وكنايةً وتعريضاً وإيماءً إلى الغرض من وجه لايفطن له إلامن غلغل الفكر ، وأدق النظر ، ومن يرجع طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها إلى الخفي حتى كأن بسلا حراما أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها

---

(١) الناصر درويش ،ظاهرة الغموض في الإبداع ، ١٠.

(٢) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة ، ٣.

وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ، وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء رضوا لأنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح"(١).

وهذا كلام نفيس يجعل وضوح المراد أصلا في الفصاحة والبلاغة اللذين هما مناط قبول النص ورده، بل هما معيار روزه والحكم عليه، وكل ما ذكره المتقدمون عن التعقيد بأنواعه عائد إلى هذا الأصل ومستصحب هذا الأصل العظيم من أصول النظر العلمي البلاغي؛ يقول السكاكي :" والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك في متصرفه، ويشيك طريقك إلى المعنى ويوعر مذهبك نحوه؛ حتى يقسم فكرك ويشعب ظنك إلى أن لا تدري من أين تتوصل وبأي طريق معناه يتحصل كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه"(٢)

ولم يكتف البلاغيون بهذا القدر في تناولهم للوضوح والغموض؛ بل عرضوا له في سياق الحديث عن الصورة؛ لأن النص الشعري مثقل

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٣٤٩.

(٢) السكاكي، المفتاح، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥م، ٢٢١.

بالدلالات والإيحاءات والرموز والصور، والطاقة الفنية تجعل النص غامضاً؛ بحيث يطرح النص الإبداعي بسبب غموضه دلالات متعددة، واحتمالات مختلفة للتأويل والتفسير؛ فالغموض الذي يواجه المتلقي ناشئ عن اهتزاز الصورة الثابتة لعلاقة الدال بالمدلول، بحيث تصبح للكلمات والتعابير دلالات جديدة متشابكة مع غيرها في النص الإبداعي، وذلك على خلاف ما كانت تعبر عنه من معاني وأسماء قبل دخولها في النص الإبداعي؛ فلهذه المعاني والتعابير دلالات محددة في نفس القارئ؛ بيد أن دخول هذه الكلمات والتعابير ضمن صياغة جديدة في النص الإبداعي يكسر طبيعة النمط المألوف لهذه الكلمات في نفس المتلقي، وتصبح لهذه الكلمات والتعابير ضمن جسد النص الإبداعي أكثر من معنى وصورة ودلالة(١).

وضمن هذا الفهم لأهمية الصورة وعلاقتها بالغموض وعلاقتها بالمتلقي؛ فقد ربط عبدالقاهر الجرجاني النص الإبداعي بالمتلقي مبيناً دور النص المثقل بالدلالات المجازية في شد المتلقي واجتذاب مشاعره من خلال علاقة الحوار والمشاركة بين النص والمتلقي بالغموض الناشئ عن الدلالات المجازية، والتجاوز للمألوف في التعبير والإيحاء والصورة، وبهذا

---

(١) للتفصيل؛ انظر: الناصر درويش، ظاهرة الغموض في الإبداع، ٢٧.

يقع المتلقي في دائرة التأويل والتفسير، ويصبح مشاركاً فاعلاً في تأويل النص وإعادة إنتاجه مما يفرض حالة من الإرهاق الفكري والنفسي على المتلقي ؛ يقول الجرجاني بهذا الخصوص: "هذا –وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك، ونشر بزه لديك، قد تحمل فيه المشقة الشديدة، وقطع إليه الشقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص؟ ومعلوم أن الشيء إذا علم أنه لم ينل في أصله إلا بعد التعب، ولم يدرك إلا باحتمال النصب، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه، وأخذ الناس بتفخيمه، ما يكون لمباشرة الجهد فيه، وملاقاة الكرب دونه، وإذا عثرت بالهوينا على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملة أنه الذي كد الطالب، وحمل المتاعب، حتى إن لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك...."(١).

والذي يظهر من مثل هذا أن البلاغيين الأوائل في هذا السياق ينحون إلى تحديد مستويات الخطاب من حيث كونها تدل على المعنى المباشر دون استغلاق، واعتماد الصور الشعرية القريبة المنال على حد قول ابن طباطبا العلوي في كتابه عيار الشعر:" وينبغي للشاعر أن يتجنب الإشارات

---

(١) عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ١٢٣-١٢٤.

البعيدة والحكايات المغلقة والإيماء المشكل، ويعتمد ما خالف ذلك، ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة، ولا يبعد عنها، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني التي يأتي بها."(١) رغم أنه يقول في موضع آخر: "والتعريض الخفي الذي يكون بخفائه أبلغ في معناه من التصريح الظاهر الذي لا ستر دونه "(٢) مما يوحي بالنظرة العامة التي تفضل الصورة قريبة المأخذ التي لا تبهم على المتلقي المقصود ؛ولعل هذا الحد "سيق من ورائه الكثير من التعليلات اللاحقة زمانيا، ولاعتبارات عدة استساغ المتلقي العربي القول بأن التعمق في الصور الشعرية يؤدي للغموض في الشعر، وأبان عن الشروط الضرورية للكفاءة الشعرية. والقصد من هذا التنبيه هو ما تؤكده الضرورة القصوى لتبني أسس متينة للتعبير الشعري، أو كما اصطلحت عليه الكفاءة في الشعر التي تتأسس على لغة القصيدة التي تكون عنصرا أساسيا في كفاءة البناء، فهي أداته الوحيدة، ولذلك ينبغي أن تحتوي على كل ما تحتاج إليه لتكون مفهومة، وأن التفاصيل – ونعني بها التشبيهات والاستعارات والصور التي يستعملها الشاعر في القصيدة – ينبغي أن تكون واضحة في حدود القصيدة"(٣).

---

(١) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ت عبدالعزيز المانع،دار العلوم ١٤٠٥هـ ، ٢٣.

(٢) السابق ٢٤.

(٣) انظر : عبدالناصر درويش ، ظاهرة الغموض في الإبداع ،٦٧.

وظاهر من كل هذا أن الوضوح والغموض في الدرس البلاغي يلح على القيمة الجمالية كثيرا، وأن صلته ليست بما ينبغي أن يقال، ولا بماذا يقال، ولا بالسؤال عما يقال ولكن بالسؤال عن كيفيته.

ولهذا لم أجد بلاغيا واحدا يعد الغموض في النص الإبداعي إشكالا قيميا وخللا مضمونيا ، ولا أن الذي يبهم في قوله كالذي يجعل الإبهام وسيلة لتبرير الخطأ والإفساد .

ولعل مرد هذا إلى أن المنظرين في هذا الشأن من البلاغيين لم يكن الهاجس القيمي، واستشعار رسالة النص والهدف الحقيقي للإبداع ماثلاً في أذهانهم ، ولم يكن الغموض مبدأ فكريا يتمالأ عليه طائفة يحطون رحال معتقداتهم في سراديب حيرته.

المبحث الثالث

الوضوح والغموض في فضاءات النقد

تعد مسألة الوضوح والغموض قضية جوهرية من قضايا النقد الأدبي، وهي من أهم دوافع الحراك النقدي في القديم والحديث ، ومع تعدد مستويات الوضوح والغموض في الإبداع والتنظير واختلاف التناولات إلا أنها تشكل علامة بارزة في مجمل الدرس النقدي .(١)

---

(١) للتفصيل ؛ انظر: شكري عياد، الغموض في الشعر الحديث ، ضمن كتابه :الأدب في عالم متغير، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧١م ، ٧٩-٨٨ .وعز الدين إسماعيل ، ظاهرة الغموض ، ضمن كتابه : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية،بيروت ، دار العودة ،١٩٨١م ، ١٧٣-١٩٤ .وبدوي طبانة ، معاني الأدب بين الوضوح والغموض ،ضمن كتابه :قضايا النقد الأدبي، الرياض ، دار المريخ ،١٩٨٤م، ١١٧-١٤٢. وحلمي خليل ، العربية والغموض، الإسكندرية ، دار المعرفة الجديدة،١٩٨٨م،وخالد سليمان ،أنماط الغموض في الشعر العربي الحر، إربد ، منشورات جامعة اليرموك،١٩٨٧م. وعبدالرحمن بن محمد القعود ، الوضوح والغموض في الشعر العربي القديم ،الرياض ، مطابع الفرزدق التجارية ، ١٩٩٠م .ومحمد الهادي الطرابلسي ، من مظاهر الحداثة في الأدب : الغموض في الشعر ،ضمن كتابه : بحوث في النص الأدبي، تونس، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٨م،١٥٧-١٨٠ .ومسعد بن عيد لعطوي ، الغموض في الشعر العربي ،مجلة جامعة الإمام محمدبن سعود الإسلامية ، ١٤٠٩هـ، المجلد ٢ ، ٢٠٥-٢٤٩ .ومحمد بن عبدالرحمن الهدلق، موقف حازم القرطاجني من قضية الغموض مقارنا بوقف النقاد السابقين، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١٢هـ ،المجلد ٤ ، ٣٣٥-٣٦٠.

وحين يقتضي الحديث توصيفا لمجمل التعاطي النقدي مع قضية مفصلية بهذا الحجم لا يمكن لأي باحث ينظر في هذا الشأن أن يغفل في النقد القديم موقف حازم القرطاجني من قضية الوضوح والغموض في الشعر؛ لأنه من بين كل النقاد في تراثنا العربي قدم القضية تقديما مختلفا؛ متكئا على العلاقة بين أطراف القضية ؛ النص والناص والمتلقي ، مبررا تفضيله الغموض بكونه يزيد التوافق بين هذه الأطراف ، ويقول:

"إن المعاني وإن كانت أكثر مقاصد الكلام ومواطن القول تقتضي الإعراب عنها والتصريح عن مفهوماتها فقد يقصد في كثير من المواضع إغماضها وإغلاق أبواب الكلام دونها، وكذلك –أيضا –قد نقصد تأدية المعنى في عبارتين ؛ إحداهما واضحة الدلالة عليه، والأخرى غير واضحة الدلالة لضروب من المقاصد؛ فالدلالة على المعاني إذن على ثلاثة أضرب ؛ دلالة إيضاح، ودلالة إيهام، ودلالة إيضاح وإيهام معا"(١) .

---

(١) حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب بن خوجة،بيروت دار الغرب الإسلامي،١٩٨٦م ، ١٧٢ .

إن كلام حازم يحمل روحا نقدية جديدة ؛ إذ جعل الدلالات المختلفة محتملة، وما يذهب إليه هاهنا ناتج عن رأيه في نظرية المعنى(١) وبواعث الإبداع التي حصرها في الإمتاع والارتياح حين يقرر بأن بعض أنواع الغموض يجب أن تكون في الشعر؛ مثل اللغز والكناية والإشارة ؛ وهذا كله يتطلب ثقافة خاصة؛ أي قارئا خاصا؛ويلح على هذا لتوثيق العرى بين النص والمتلقي ، وقد نال شعره شيءٌ من تنظيراته؛ حيث أورد فيه كثيرًا من مصطلحات علم الفلك والمنطق والفلسفة والفقه والحديث، مع اهتمامه بروابط العلاقة بين الفكرة والنص وعلاقة هذا كله بوظيفة الأدب ؛ وهذه نقطة مفصلية في مفهوم الإبداع ودواعيه ؛ يقول :"**وإذ قد عرفنا كيفية التصرف في المعاني التي لها وجود خارج الذهن والتي جعلت بالفرض بمنزلة ماله وجود خارج الذهن فيجب-أيضا- أن يشار إلى المعاني التي ليس لها وجود خارج الذهن أصلا، وإنما هي صور ذهنية محصولها صور تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني والألفاظ الدالة عليها والتقاذف بها إلى جهات من الترتيب والإسناد** "(٢).

---

(١) انظر في هذا : فاطمة الوهيبي ، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي،٢٠٠٢م. ٣٠٤.

(٢) حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ١٥.

وهو يشير بهذا إلى وجود معان ثوان تستبطن المعاني لها بواطن شتى يغلفها المتحدث برداء الغموض الذي له حيل شتى ؛ منها " ما يرجع إلى المعاني أنفسها ، ومنها مايرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى، ومنها مايرجع إلى المعاني والألفاظ معا "(١).

وما من شك في أن هذا الجهد النقدي المتقدم رغم الروح الفلسفية يعد إبداعا متفردا يحسب لهذا الناقد الذي ظهر أثره جليا في الدراسات النقدية الحديثة، وبالأخص حديثه الذي تكرر في مواطن كثيرة بضرورة جعل المتلقي ينال نصيبا من فك رموز العمل الإبداعي باستثمار القرائن؛ كالشرح والتفسير والاستعاضة عن لفظ بغيره وتصحيح مخالفة للمعنى ؛مما يجعل للغموض قيمة عنده ؛ يقول :" فأما طريق الحيل في إزالة الغموض والاشتكال الواقعين بهذه الأشياء فهي أن يعتاض من الشيء الذي به الإغماض والإشكال أو أن يقرن به ما يزيل الإغماض والإشكال ، والاعتياض يكون بما يماثلها من جهة الدلالة"(٢)، وقد ظهر جليا أنه مع هذا التميز إلا أن التناول عنده لهذه القضية قريب من الجمال بعيد عن الفكر .

---

(١) السابق ، ١٧٢.

(٢) السابق ، ١٧٥.

إن النقد الحديث في بعض تياراته وتفاعلاته يتكئ في حديثه عن الوضوح والغموض على جهد النقاد العرب المتقدمين ممثلا في رؤية حازم وعبدالقاهر الجرجاني، وهذ التقاطع يحمل سياقا جماليا وظيفيا يبحث عن لغة الكشف التي تعطي للكلمات غنى جديداً أعمق من الكلام وأكثر بقاء منه ؛ " ولذا أحدث النظر النقدي في الشعر انفجاراً لغوياً فسره النقاد (بالغموض) ، واتجه الكثير من العارفين إلى التصدي لهذا الغموض بالبحث والتحري عن كنهه في علم العلامات وعلم التأويل ؛لأن الغموض في التعبير الشعري ليس غموضاً ولكنه إبهام ؛ إذ إن الإبهام يرتبط أساسا بتركيب الجملة؛ أي أنه صفة نحوية أساسا تقوم على التعقيد في التركيب اللغوي بغموض بعض القصائد إذ إنه يعتمد على القراءة الاستكشافية والاسترجاعية للوصول إلى دلالة النص وغاياته"(١) .

لقد تنوع التناول النقدي العربي لقضية الوضوح والغموض في العصر الحديث تنوعا كبيرا ، وظهرت دعوات قوية للترويج للغموض والهروب من الوضوح ، وهذه الدعوات كلها ابتداء من المنهج البنيوي النقدي الذي يعتمد تعدد الدلالات والقراءات للنص الواحد، مرورا بالمنهج التفكيكي الذي يقدم قراءات لانهائية للنص الواحد، ووصولا إلى

---

(١) الناصر درويش، ظاهرة الغموض في الإبداع،٧٧.

الفرار من فخ الدلالة(١)، كلها تستثمر مع الغموض فلسفة وقيمة فكرية تجسد نظرتها للحياة وليس كما ينظر النقد القديم ؛ فالغموض وانفلات الدلالة والفوضى والحيرة والشك كلها فلسفات تقدمها الحضارة المعاصرة في تجليات مختلفة يتوجها العبث واللامعقول والفرار من الهدف في الفن .(٢)

إن الحراك النقدي الراهن يلح في كثير من تجلياته على الغموض الذي يجعل الدلالة مفتوحة محتملة التوجيه أنى حمل مرادها ؛ بحيث تكون " الأبنية الشعرية من شأنها أن تظل مفتوحة على المستقبل يستخرج منها الدلالات التي قصد إليها الشاعر والتي لم يقصد إليها وكان لفظه قابلا لاستساغتها ، ولما كان الشعر من شأنه أن يدل في أبياته الغوامض على أكثر من معنى امتحنت الأذهان اللطيفة قدراتها على الفوز بالمعاني التي فاتت الشراح أو النقاد السابقين؛ وظفرت من ذلك بإحدى المتع الخالصة التي تمكن منه الأشعار الجيدة دارسيها ...ثم إن الشعر يحكم بعدم اكتفائه بدلالة تدل عليها ألفاظه "(٣).

---

(١) انظر: السابق ٥٥ومابعدها .

(٢) للتفصيل في هذا ؛ انظر : محمد علواني ،المدارس الرمزية والبنيوية والتفكيكية من منظار الفكر الإسلامي،دار الحضارة الإسلامية عمان، ١٩٩٩م ،٤٦.

(٣) حسين الواد ، المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٤م، ٢٩٣.

إن انفلات الدلالة هو المناط الحقيقي لكل دعوات النقد الحديث للغموض والنفور من الوضوح على حد قول درويش :

لن تفهموني دون معجزة
لأن لغاتكم مفهومة
إن الوضوح جريمة⁽١⁾

لقد كان المعتمد في هذا كله على الوافد المستجلب ، يقول المفكر الفرنسي (جاك دريدا): "إنَّ مفخرة النصوص العظيمة هو افتقارها إلى التحديد؛ فالكتابة بالنسبة إليه تتضمن غياب المؤلف وليس حضوره، فهي سجل غير كامل بالضرورة لأفكاره وأغراضه التي يجب أن تركن مقاصد القارئ إليه قبل أن تصبح ممكنة التفسير ...إن القارئ يكتب النص؛ ولكن لما كان القارئ نفسه كائناً غير مستقر، وأنه سلسلة من السياقات والأهداف التي تتغير بين لحظة وأخرى، فيعدّ ذلك النص ذاته غموضاً لا يمكن تحديده" ⁽٢⁾.

وليس هذا فحسب؛ بل إن النقد الحديث تظهر فيه دعوات قوية لتعدد التفاسير للنص الواحد تخليدا للغموض في النص الشعري؛ يقول

---

(١) محمود درويش، محاولة رقم ٧، دار العودة ، ١٩٧٢م، ٤٨١.

(٢) الناصر درويش ، ظاهرة الغموض في الإبداع ، ٤٤.

(ت. س. أليوت): "إن أيَّ تفسير هو صحيح كالآخر"(١)، ويرجع ذلك إلى أن هذا التفسير أو غيره يكون "محتفظاً بإرث وناقلاً لمعرفة"(٢) ، وكان دعاة التفكيكية (التشريحية) يرحبون بسوء التفسير لأنهم يرون أن "ليس هناك ما يدعى بالخطأ"، وكل الدلالات مفتوحة ؛ وبالنتيجة فليس هناك في الأصل نص أصيل(٣).

لقد تجاوز الدرس النقدي العربي في تعاطيه مع الغموض السياق المعتدل للغموض الشفيف الذي لاينبيء عن موقف فلسفي في النقد المستجلب من الغرب إلى نقد عدمي عبثي يقدس الغموض اتكاء على روح عدمية ثائرة .

إن وليم إمبسون وهو أحد الرموز في النقد الغربي يقول :" يكون الغموض محترما مادام يسند تعقيد المعنى أو اكتنازه ، أو ما دام ندحة يستغلها الأديب لقول بسرعة ما قد فهمه القارئ ، ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر ويبهم الأمر دون داع ، أو عندما لا تتوقف قيمة العبارة على ذلك الغموض ، بل يكون مجرد وسيلة

---

(١) السابق ٥٤.

(٢) السابق ٥٥.

(٣) انظر : السابق ٢٨٨.

لتوجيه المادة وتصريفها ، وذلك إن كان القارئ لا يفهم الأفكار التي اختلطت وانطبع لديه شيء من عدم الاتساق"(١)، وهذا جزء من امتدادات مشروع حازم القرطاجني في الثقافة النقدية المعاصرة، ولكن النقاد العرب في المشروع الحداثي تجاوزوا هذا الطرح المعتدل إلى افتراض الدلالات المفتوحة، فإن استغلق الفهم على المتلقي عند قراءة النص الشعري اعتذر المنظرون قائلين: "الإبهام واللبس من أهم خصائص الرسائل الْمُرَكّزة في نفسها، وأولها الشعر، ولهذا فإن اللبس يكمن في جذور الشعر، ولا يقتصر على الرسالة، بل يشمل المرسل والمرسل إليه، فضلاً عن (الأنا) أي البطل الغنائي أو القصصي، و(الأنت) المرسل إليه المفترض في الحوار الدرامي، وكلها شخصيات يعتبر الإبهام أو عدم التحديد جزءاً مكوناً من طبيعة وظائفها الفنية"(٢) ؛ لأنه لا يمكن القبض على الدلالة في رأيهم ؛ ولذا فإن هذه الفئة ترفض "حصر المعنى بالنص وتميل إلى الاعتقاد بأن القارئ هو الخالق الحقيقي للمعنى"(٣) وبذلك كان الشعار الذي الضخم الذي ترفعه مثل هذه الاتجاهات التي "نبذت ما هو محدد سلفياً لا لرغبة في المغايرة

---

(١) فايز الداية ، جماليات الأسلوب ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر، ط٢ ، ١٤١١هـ ،٢٣٥.

(٢) كمال دياب ، الغموض الحقيقة المطلقة ، عالم إبداع ، ٢٠٠٥م ، بحوث المؤتمر الدولي للسانيات، المغرب ،٢٢.

(٣) السابق ٢٢.

وإنما لأن الأمر مرتبط بفلسفتها الرامية إلى نبذ المعرفة المتصلة بالذهن سلفياً، والتعويض عنها بعلاقة حوارية تهدف إلى استقراء ما يحدث للقارئ وهو يتلقى النص، وكيف يصل بنفسه إلى حلقات المعرفة وطبقاتها"⁽¹⁾.

وهنا تكمن الخطورة في بت الصلة بين النص والمتلقي، والماضي والحاضر؛ لتعزيز الفوضى والعبث والعدمية التي تقدمها الفلسفات المعاصرة للهروب من الواقع والتنصل من مسؤولية الكلمة ؛ وليس هذا فحسب ؛ بل إن هذه الدعوة العدمية تنطوي على روح فرعونية فيها احتقار للمتلقي وازدراء له واستغناء عنه؛ يقول وليد قصاب :

> " تمخَّضت النزعة الحداثيَّة عن تقليعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الآداب، وهي "احتقار القارئ" والاستعلاء عليه، أو "موت القارئ"، على شاكلة ما سُمِّي "موت المؤلف" الذي أشاعَتْه البنيوية. وقد أخذت هذه النزعة عِدَّة وجوه؛ فقال قائل منهم: إن الغموض من طبيعة الشعر، فهو بحكم تشكيله اللغوي والفكري الخاص أعمق من النثر، وأحوج إلى الغوص والاستبطان، وقال قائل: إن الجماهير العربية أميَّة، سطحية الثقافة، ولمَّا ترقَ بعدُ إلى المستوى الثقافي المطلوب لتفهُّم تقانات الشعر الحديث، وآليَّاته الجديدة المتطوِّرة .

---

(١) السابق ٢٣ .

وقال قائل: إن الشعر ثقافة الخاصة، ومن ثَمَّ فهو مستعصٍ على الغالبية العظمى من جماهير الناس.

وقال قائل: إن ثقافة الجمهور العربي تقليدية تراثية؛ ولذلك فهو لا يسيغ الأشكال الجديدة، ولا يتذوَّقها... وقيل غير ذلك.

وفي تسويغٍ لغيبة التواصُل بين شعر الحداثَة والمتلقِّي، عُرِفت هذه الدعوة - المحمومة العجيبة - إلى احتقار القارئ، ونفيه التام من معادلة العمل الفني، بحيث يصير النتاج الشعري - بتعبير أحدهم - نتاجًا في ذاته ولذاته؛ أي: كأن الشاعر يكتب لنفسه فقط"(١).

ولم تقتصر حمى الغموض في الحراك النقدي العربي على المناداة به والتمالؤ عليه، بل انتقلت إلى معاداة الوضوح وعده لا يستحق الالتفات ؛ يقول عبدالله نور :" الشعر الذي يفهم ليس بشعر"(٢) ، ويقول كمال دياب :

" الوضوح أكبر جريمة يقترفها المبدع؛ لأنه يختزل إبداعه في زاوية مظلمة من زوايا التاريخ"(٣) .

---

(١) وليد قصاب ، الغموض واحتقار القارئ ، موقع د وليد قصاب:
http://www.alukah.net/Web/alkassab/٠/١٩٧٨٠/

(٢) عبدالله نور ، ملف نادي الطائف الأدبي ،العدد السادس ١٤٠٧، ٥٥.

(٣) كمال دياب،الغموض الحقيقة المطلقة ،١١١.

وهـذا كلـه يجعلنـا بكـل جـلاء نجـزم بـأن الـدعوة المعـاصرة للغمـوض والحراك النقدي حولها ليست كـما يـصورها النقـد الحـديث دعـوة شـكلانية جمالية دلالية ؛ وليس الخلاف بين أساطين النقد من الجهتين خلافـا متـصلا بالإبداع الفني المجرد ؛ بل إن المسألة أكبر من ذلك بكثير؛ إذ تتـصل بـالقيم وتتكئ على فكر وتحركها فلسفات ، وهـي ترجمـة لمواقف مبدئيـة مـن الكـون والإنسان والحياة .. بل والخالق عز وجل .

ولهذا كله فإن التنـاول للغمـوض والوضـوح في الـدرس النقـدي لا يرقـى -أيـضا – لـما ينبغـي أن يكـون عليـه النظـر المقـصود في هـذه القـضية الكبرى ولابد من نظر جديد لها مستصحب كل هذه المعطيات .

الخاتمة

إن قضية الوضوح والغموض أخطر من أن تختزل في قضايا شكلية أو جمالية ؛ بل هي متصلة اتصالا وثيقا بفلسفة الوجود والفكر العدمي الذي تاهت به الحضارة المعاصرة في سراديب الحيرة والشك ، وما من منهج نقدي أو أدبي يعتمد الغموض فكرة مبدئية أو يطبقه في إبداعاته في سياق تأسيسي غير عارض إلا كان له نصيب من هذا السياق المنحرف الذي يجسد غربة الأدب في هذه الأعصار المتأخرة، وبعده عن الانتماء الواضح لقيم الأمة وموروثاتها .

إن الوضوح النسبي الذي يبقي الصلة بين المتلقي والنص هوجزء من وظيفة الأدب وجزء من مسؤولية الكلمة ، ولايمكن حمل هذا العبث المسمى غموضا إلا على أصوات من لا يعقل ؛ ولهذا كانت المعركة مع القائلين بالغموض المطلق معركة فكرية قبل أن تكون جمالية ،وليس هذا لأن بعض النظار في هذا الشأن نفروا من الغموض بسبب استخدام بعض الشعراء الرمزَ للتمرير لأفكار منحرفة أو التعبير عن مكنونات حيرى أمام هذا الوجود الكوني المشهود فحسب ؛ بل لأن الغموض ذاته يعد مشكلة مضمونية فكرية ؛ لأنه يجسد فلسفة ويقدم رؤية فكرية عن نظر منشئ النص للكون والإنسان والحياة.

إن جناية الفكرة الوثنية الأفلاطونية القائمة على عالم المثال والمدينة الفاضلة ، وعد هذا العالم المشهود انعكاسا رديئا لعالم المثل ، والنظر للإبداع على أنه انعكاس لهذا الانعكاس الرديء، وزعم أن العقل الباطن أرحب من العقل الظاهر ، وإلحاح النقاد على التعامل مع هذا العقل الباطن على حساب العقل الظاهر –كل هذا إرهاص للفكرة العدمية التي تفلسف الغموض وتجعله غاية ، ومن السذاجة أن يظن ظان أن هذا مجرد حيل فنية يتفنن فيه القول .

لكننا مع هذا كله يجب ألا نهمل جمالية الغموض النسبي غير المبهم؛ لأن الوضوح التقريري المباشر لا يصلح أن يكون فنا ؛ بل لابد من استثارة ذهن المتلقي بما يجعله يبحر في أمداء متعددة للنص .

إن المناهج النقدية الحديثة التي تعتمد القراءات المتعددة للنص كالبنيوية ، أو تلك التي تجعلها لا متناهية كالتفكيكية هي جزء من الإشكالية الكبرى المحيطة بالحراك النقدي المعاصر، وهي التي جعلت الدلالات المفتوحة للنص أصل الغموض وانفلات الدلالة .

إن مسؤولية الكلمة واستشعار أمانتها وتبعاتها الدنيوية والأخروية تقتضي من الأديب الصادق أن يعي ما يقول ، ويعي ما الذي يريد أن يقول ،وإلا أصبح كالعجماوات (١).

لقد استقرأت أسباب هذا الغموض المبهم المصطنع ، وأرى أنها لا تعدو أن تكون :

- إما انحرافا فكريا .
- أو تقليدا لوافد مستجلب .
- أو إخفاقا فنيا وعجزا عن الإبداع الحقيقي.

إن الحرب المبدئية على الوضوح في سجالاتها كافة لا تعني الوضوح التقريري المباشر الذي يتفق الجميع على عدم مناسبته للإبداع بل تتجه إلى وضوح الرسالة والهدف ، ومشاركة الأدب الحي في المشروع الإحيائي الضخم للأمة ، وإسهام الأديب المسلم في تصحيح أخطاء مجتمعه وبيئته ، ودلالة أمته على خيري الدنيا والآخرة .

---

(١) من لطائف مايذكر هاهنا أن أحد الذين يرون أنهم يكتبون الشعر استضيف في أمسية شعرية في النادي الأدبي في أبها في ٦/ ٤/ ١٤١٧هـ وقال كلاما كدابة حديث الجساسة لا يدرى ما هو فقام أحد الحاضرين وأعلن أنه لم يفهم شيئا وطلب الشرح والتوضيح فما كان من الضيف إلا أن أعلن هو الآخر عن عجزه عن الفهم واحتياجه إلى من يشرح له شعره وقوله .

ولذا فإن فضاءات النقد وتناولات البلاغة يجب أن تجعل السجال الثقافي في قضية الوضوح والغموض مرتبطا بالفكر متصلا بالقيم ، والحكم الفصل فيها مرده إلى الجلال والجمال معا لا إلى الجمال وحده .

والله المستعان وعليه التكلان .

المراجع

١- الآمدي ، الموازنة ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، د ت ، بيروت .

٢- ابن أبي الحديد ، الفلك الدائر ، ت أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار الرفاعي، الرياض ، ط ٢، ١٤٠٤هـ.

٣- ابن رشيق ، العمدة ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٥، دت .

٤- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ت عبدالمتعال الصعيدي،مكتبة صبيح ، القاهرة،١٣٨٩هـ .

٥- ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ت عبدالعزيز المانع،دار العلوم ١٤٠٥هـ .

٦- ابن وهب ، البرهان ، دار المنارة ، دار الرفاعي ، ط ٣، ١٤١٨هـ.

٧- أبو القاسم القشيري ،القشيرية ، ت عبدالحليم محمود ، دار صادر ،بيروت ،١٩٨٩م.

٨- أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين ، ت علي البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ،بيروت ، ١٤١٩هـ.

٩- أحمد بدوي ، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر،١٩٩٦م، مصر-.

١٠- الجاحظ ، البيان والتبيين ، ت عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، ط ٤ ، ١٩٨٥م، .

١١- الجاحظ ، الحيوان ، ت عبدالسلام هارون ، دار الكتب العلمية ،دت .

١٢- السيد محمد الديب ، الغموض في شعر أبي تمام ،دار الطباعة المحمدية ، القاهرة،١٤١٠.

١٣- الناصر درويش، ظاهرة الغموض في الإبداع،المكتبة العلمية،بيروت، د ت.

١٤- حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب بن خوجة،بيروت دار الغرب الإسلامي،١٩٨٦م .

١٥- حسين الواد ، المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٤م.

١٦- خالد الباني ، الصوفية الغالية ، دار البشائر الخيرية ، ١٤٢٢هـ ، .

١٧- درويش الجندي ، الرمزية في الأدب العربي ، نهضة مصر، د ت ٢٦١.

عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،ت محمود شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ١٤١٢هـ، .

١٨- شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، ١٩٨١م.

١٩- شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٨، د ت ،.

٢٠- عبدالقاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ت محمود شاكر ، ط ١ ،مطبعة المدني ، ١٤١٢هـ ، القاهرة .

٢١- عبدالقاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ت محمود شاكر ، ط ١ ،مطبعة المدني ، ١٤١٢هـ ، القاهرة .

٢٢ - فاطمة الوهيبي ، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي،٢٠٠٢م.

٢٣- فايز الداية ، جماليات الأسلوب ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر، ط٢ ، ١٤١١هـ.

٢٤- كمال دياب ، الغموض الحقيقة المطلقة ، عالم إبداع ، ٢٠٠٥م ، بحوث المؤتمر الدولي للسانيات ، المغرب .

٢٥- محمد علواني ،المدارس الرمزية والبنيوية والتفكيكية من منظار الفكر الإسلامي، دار الحضارة الإسلامية عمان، ١٩٩٩م.

٢٦- محمد مصطفى هدارة ، ظاهرة الغموض في القصيدة العربية المعاصرة ،ضمن : دراسات في الأدب الحديث، النادي الأدبي بالمدينة النبوية، المجلد ٣، الكتاب ١٠٢، ط١ ، ١٤١٦هـ .

٢٧- مسعد العطوي، الغموض في الشعر العربي ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،١٤١٠هـ ، العدد ٢ .

٢٨- وليد قصاب ، في الأدب الإسلامي، دار القلم ، دبي ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ١٠٧ .

٢٩- يحيى الجبوري ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٨ ، ١٤١٨هـ، .